محاضرة

تضمّنت المحاضرة، التي ألقتها الكاتبة والمخرجة الفلسطينية أخيراً، بدعوة من «جائزة بانيبال للترجمة» شهادة شخصية حول نشأتها في القدس وأريحا وما خرّبه زمن الاحتلال، متناولةً معادلة تمزجُ العالم في إنسانية واحدة تفتحُ الترجمةُ الحدودَ بينها

لندن ـ **العربي الجديد**

ليانا بدر عثرتُ على العالَم كلّه في فلسطين

الأدب كموزاييك للحياة

«أحسب أنني أحببتُ الكتابة عندما وُلدتُ ونشأتُ في القدس التي نظرت فيها إلى نجوم العالم وكواكبه كلّها، المدينة التي بدت مركز الكرة الأرضية لأهلها، وكانت دائماً مليئة بالناس من شتى الجنسيات والأديان». بهذه الكلمات افتتحت الروائية والمخرجة الفلسطينية ليانا بدر (1950) المحاضرة السنوية التي تُنظّم ضمن «جائزة سيف غباش بانيبال للترجمة الأدبية العربية»، وتحدّثت فيها عن الجو الذي نشأت فيه في القدس مسقط رأسها، وتنوّع الكتابات والجنسيات والأشخاص الذين واجهتهم في سنواتها الأولى في المدينة، وتجربة ترجمة أعمالها إلى لغات أخرى.

تحدّثت بدر، خلال المحاضرة التي ألقتها الأربعاء الماضي وحملت عنوان «عن ابتكار موزاييك الأدب»، عن التنوّع الديني الذي عرفته مبكراً، قائلة: «عشنا متشابكين في القدس مثل خيوط ملوّنة في ثوب مطرز، وانسحب هذا على أريحا، حيث كنا نتبادل الأحاديث مع أم ناصر، الخيّاطة المسيحية التي كانت تعيش مع بناتها في البانسيون القديم الذي مرّ به مارك توين حين زار فلسطين». وتضيف: «كان أهالي البلدة يأتون إلى سطوح بيتنا ليشاهدوا النجوم والكواكب عبر تلسكوب أبي الذي استغرق إنجازه ستة أشهر بالحفر اليدوي».

وتُردف: «حتى إلى ما بعد عام 1994، حين رجعتُ من المنفى، كان بإمكاني رؤية هذه الصور المؤثرة بطلاء مذهّب على الحائط الخارجي المصنوع من اللبن، في ذلك البيت الصغير جداً الذي أنجزه أبي، وكان يوماً العيادة الطبية الوحيدة في المدينة، كنتُ أرى تلك الصور، في فلسطين، قبل الاحتلال، كانت الأديان واسطة للتآلف والرحمة بين البشر، وكانت الراهبات هن من يعلمننا دروس البيانو والموسيقى، لذا لم يكن مستغرباً أن أنتمي إلى مدرسة مقدسية تحرص على حضور التلميذات عروضاً للموسيقى الكلاسيكية الغربية التي كان يقدّمها معهد غوته بشكل شبه منتظم، ولم يكن غريباً أن تُقام احتفالات أعياد الميلاد المسيحية في مدرستنا «دار الطفل العربي»، مقترنة برقصات الدبكة الشعبية الفلسطينية. هكذا عشتُ على العالم كلّه في شوارع القدس وبساتين أريحا، وليس عوالم الشرق وحدها».

من ماذا يتألّف الأدب؟ تتساءل بدر كمدخل جديد في المحاضرة لتجيب: «إنه يتكوّن من هذا الموزاييك الجميل، الذي يجمع الناس والوجوه والأمكنة والطبيعة مع بعضها، مهما اختلفت الأشكال والألوان والأنسجة كما تبدو من الخارج»، وتتابع: «بينما أرادت أمي ألّا أذهب لحضور فيلم المخرج روجيه فاديم «وخلق الله المرأة»، الذي مثّلت فيه برجيت باردو، خوفاً عليّ من رؤية العري الذي اقترنت به سمعة الفيلم، شجّعتها خالتي الكبرى أن تترك لي حرية المشاهدة، حتى وإن كنتُ في عمر العاشرة أو الحادية عشرة حينها. كانت هناك نخبة مقدسية تحاول النظر إلى العالم من جميع الجهات...

ليانا بدر في نيويورك (غريغوريو بينوبا/ Getty)

لم تكن في القدس أي بادرة للتعصّب وكره الآخر أو النزعة مما صنعه الاحتلال وخلّف آثاره بعدها». تذكر بدر تأثرها برواية «ذهب مع الريح» لمارغريت ميتشيل، حيث «اكتشفتُ أنّ الحرب تقع في أماكن أخرى غير فلسطين، وكنتُ أحسب أنّ الحرب تزقد تحت أسرة أطفال يتامى في دير ياسين هُجّروا من منازلهم بعد مذابح وحشية وصاروا طلاباً في المدرسة الداخلية التي كنتُ فيها، واكتشفتُ أنّ قصّة الناس هي التي تصنع التاريخ، وأنّ هذه الشخصيات الأسرة هي التي تجعلنا نتطلّع إلى الأحداث والناس وأنفسنا في الوقت ذاته».

تذكر: «في يفاعتي، وجدتُ في الأدب الأميركي المترجَم قوساً أوسعاً من المواضيع والأساليب التي تنتقد الحياة الأميركية وتحكي عن هوامش واسعة (...) ثم بدأت مرحلة التعرّف إلى الأدب العربي وحدي، طه حسين وتوفيق الحكيم وعباس العقاد وآخرين. شجّعني أبي على قراءة سارتر ودو بوفوار وكامو، وسار الأدب العربي والعالمي جنباً إلى جنب في حياتي، وصرتُ أشعر بالانسجام الإنساني كلّما قرأت عملاً أدبياً».

وحول الترجمة، تقول صاحبة «عين المرآة» إنها دعوة إلى «النظر بعمق في الآداب الأخرى (...) ثمّة معادلة تمزج العالم كلّه في إنسانية واحدة، ولم تكن الترجمة إلّا البوّابة التي تفتح الحدود بيننا». كما استعادت بدر تجارب رواد مقدسيين؛ أمثال خليل السكاكيني، ونجاتي صدقي، وإسحاق موسى الحسيني وإسعاف النشاشيبي.

كانت صاحبة «نجوم أريحا» قد أصدرت روايتها الأولى «بوصلة من أجل عباد الشمس» عام 1979، والتي نُقلت إلى الإنكليزية عام 1989. وعن ذلك تقول: «جلبت لي ترجمة روايتي الأولى متعة كبيرة في التعرّف على العديد من القرّاء والمختصّين والمهتمّين بالروايات، وأثرت على ما تلا من كتاباتي، لأنني صرتُ أشعر بأنني أكتب لقارئ عالمي، وليس للقارئ المحلّي فقط. لقد صرت مواطنة في مملكة الأدب الشاسعة. كما عرفتُ أن إدوارد سعيد أدرجها في منهاج الأدب المقارن في جامعة أميركية معروفة، وهذا ما جعلني أشدّ إدراكاً لدور الترجمة في إنشاء حقل تفاهم عالمي».

كان مقدار الترحيب برواية «عين المرآة» التي ترجمتها إلى الإنكليزية سميرة قعوار بمثابة «صدمة جميلة ولكن جديدة»، وفقاً لبدر التي تضيف: «كتبتُ هذه الرواية عن الوجود الفلسطيني في لبنان، واشتغلتُ عليها سنوات عديدة، في البحث عن الخلفيات الوثائقية الاجتماعية الموازية لها. جمعتُ عشرات الشهادات ممّن عاشوا هناك ورسمت الخرائط المتتالية لتل الزعتر في ظل الحصار، لأنني وددت بقوة أن أجعلها أشبه بملحمة تعكس صورة حياة الناس في المخيمات خلال الحصار الطويل، أردت أن أروي التاريخ الفلسطيني بعيون النساء. وذُهلت من حجم الإقبال على الرواية ومتابعتها وتدريسها». تقول بدر عن فكرة الفسيفساء التي أخذتها محوراً لمحاضرتها: «حين نذهب إلى قصر هشام بن عبد الملك في أريحا نطالع أكبر أرضية موزاييك في العالم، تتألّف من 38 سجادة فسيفسائية بعضها متصل ببعض، ومساحتها 826 متراً مربعاً مكونة من ستة ملايين قطعة فسيفساء استُخدمت في بلاط الديوان. لقد عمل العرب على الاستفادة من المنجزات الحضارية لشعوب الأرض التي سبقتهم، كما استفادت الحضارة الأوروبية من منجزاتهم الرائعة في حقول كثيرة، وهذا هو الأصل في التسامح الذي رسّخته عصور الحضارة في المنطقة التي اعتُبرت وسط العالَم القديم».

> جعلتني الترجمة أشعر بأنني أكتب لقارئ عالمي أيضاً
>
> لم تكن في القدس أي بادرة للتعصّب ممّا صنعه الاحتلال

بطاقة

كاتبة وسينمائية فلسطينية من مواليد القدس عام 1950، لها في الرواية: «بوصلة من أجل عباد الشمس» (1979)، «عين المرآة» (1991)، «نجوم أريحا» (1993)، «الخيمة البيضاء» (2016). ولها في القصة: «قصص الحب والمطاردة (1983) «شرفة على الفاكهاني» (1983)، «أنا أريد النهار» (1985) «جحيم ذهبي» (1992) «سماء واحدة» (2007). وفي الشعر: «زنابق الضوء» (2008) و«زمن الليل» (2008) و«أقمار» (2017). الى جانب عدة أعمال سينمائية.

إطلالة

تناقضات الخلاص الفردي

مقابل هلاك الجماعة

> يحدثُ أن ينتمي الفردُ إلى أوطان تمنحهُ الأمان والكرامة، لكن ليس لشعوب كاملة، لمدنٍ وشوارع ومكتبات أن تنزاح عن جغرافيا بلدٍ ما إلى بلدٍ آخر

سومر شحادة

يرى برتولد بريشت في كتابه «حوارات المنفيين» أنّ للمهاجرين «حاسة شمّ شديدة لرصد التناقضات»، فإنّهم قد هاجروا نتيجةً لمُتغيرات. وبحسب بريشت فإنّهم يتوصّلون إلى أكبر الأحداث ويحلّون عُقدها، لا من خلال دراسة المُتغيرات، وإنّما من خلال رصد المظاهر والتفاصيل التي تحيط بهم. بالتالي نصل مع بريشت إلى اعتقاد مفادهُ أنّ المهاجرين يبنون وعياً قائماً على الأمر ونقيضه معاً.

يختبر هذه المسألة اللاجئون الذين دُفعوا قسراً إلى مغادرة مدن منكوبة، خصوصاً الذين غادروها إلى فضاء آخر مختلف، يحمل لغةً جديدة، ويبرقُ أمامهم عالمٌ جديدٌ؛ يستطيعون التعبير فيه عمّا يفكّرون به حيال حياتهم الماضية وحيال مستقبلهم. وبالحديث على نحو أكثر تخصيصاً عن لاجئٍ غادرَ أو دُفِعَ إلى المغادرة بعد تجربة نُضال في بلده، وهو مؤمنٌ بثورات أرادَ منها تغيير واقع بلده. نجدهُ ينظُرُ من لجوئه إلى العالقين في مدن بعيدة يهلك أهلها، وينمو في داخله إحساسٌ بأنّه قد تمكّن أخيراً من تحقيق الخلاص الفردي. غير أنّ هذه الفكرة لا تأتي بمفردها، إذ تنمو داخلهُ على التوازي معها؛ فكرةُ أنّ أهلهُ لم يتمكنوا من النجاة. تزدهرُ فكرة الخلاص الفردي مقابل واقع أعمّ وهو هلاك الجماعة، وإذا كانت الأولى تمثّل فكرة سلطويّة تمجّدُ نجاة الفرد، فإنّ الثانية، أي الهلاك العام، تُفرّغ نجاتهُ من جدارتها. ليحمل ذلك اللاجئ عبءَ أنّه نجا، وأنّه حر، وأنّه يستطيع التعبير بحريّة، فالثمن بالنسبة لهُ مدفوعٌ مُسبقاً، وهو خسارته لبلده.

لكن مقابل هذه الحقائق، وفي عالم موازٍ آخر، يوجدُ أناسٌ لم يستطيعوا النجاة، معتقلون، والقيود تلجمُ حناجرهم.

يجيء كتاب بريشت من اعتبارات مواجهة النازيّة، ويتكفّل بريشت بأن يستمر النضال من خارج ألمانيا عبر مساندة الأحرار في داخلها. فإذا ما عالجنا فكرة الخلاص الفردي انطلاقاً من كونها محاولة بناء مُعقّدة وطويلة الأمد لخلاص جماعيّ، كانتْ تجهدُ من أجله الثورات، يشقّ آنئذٍ على اللاجئ أن يعترف أنّه قد أصبح خارج محاولة الجماعة في التغيير. قد يُبْتَزّ لظروف سياسيّة واجتماعيّة شتّى، غير أنّ ما يَبْتَزّ نجاةَ الفرد هو هلاكُ أهله، وتفكيره أنّه قد خرج وحيداً من تحت الأنقاض، أنّه ناجٍ من المجزرة، وهو أمرٌ يشكو منهُ الكثيرون. بدءاً من تفاصيل عاديّة مرتبطة بالطعام والكهرباء والماء، بالسقف الأمن والشوارع الآمنة والبيوت الدافئة، وانتهاءً بالفضاء الحُرّ للتعبير. إذ يفكّر اللاجئُ المسكون بقضايا كبيرة، أن لا نجاة تامّة ما لم تكن نجاةً لجماعته.

ماذا يفعل الفردُ العاجز أمام التناقضات التي قد تؤزّمه إذا ما تحلّى بالحدّ الأدنى من الحساسيّة. ننتبه إلى أشكال عديدة ونلمحها في مواقف الكثيرين؛ قد يصيرُ اللاجئُ الذي كان قد تبنّى قضايا كبيرة، ناقماً على جماعته التي لم تنجُ. قد يحتقرُ نضالاتها التي تستمر بعدما غادر، قد يؤكد تفوّقه على الجماعة باعتبار نجاته فحسب، وهذا أسوأ ما قد يحدث. فليس لأيّ من اللاجئين الذين يتباهون بـ «خلاص فردي» بعدما تصدّوا لنضالات عامّة، أن يسبغ حلولهُ على حشدٍ آخر، وإلا لتبخّرَتْ الأوطان بخروج أفراد منها. يحدث أن يعيدُ الفردُ تعريفَ هويتهِ يومياً وينتمي إلى أوطان تمنحهُ حرية الحركة والأمان وشعوراً بالكرامة. لكن ليس لشعوب كاملة، لمدن وشوارع ومكتبات أن تنزاح عن جغرافيا بلدٍ ما إلى بلدٍ آخر.

> يؤكد تفوّقه على الجماعة باعتبار نجاته فحسب

يشيرُ بريشت إلى تناقضات يشعر بها المنفيّ. لكن في مسألة اللجوء لا يقول لنا إنّ كانت التناقضات تبني اللاجئ أم تحطمه، فتلك مسألة تعود لتعاطي الأفراد، ولهم أن يعوا تناقضات قد دفعوا إليها بطرقٍ غير رحيمة، ولهم أن يصنعوا من تلك التناقضات بعضاً من الإحساس العام بالجماعة التي ما زالت تقاوم، من غير نزعة تحطيم صورة من استمر بعدهم.

يُحتّمُ على اللاجئ، كما يُحتّمُ على المقيم، أن يعي فكرةَ أننا طارئون على الأمكنة التي تستمر بالتغيّر ما استمر البشر بالترحال.

(كاتب من سورية)

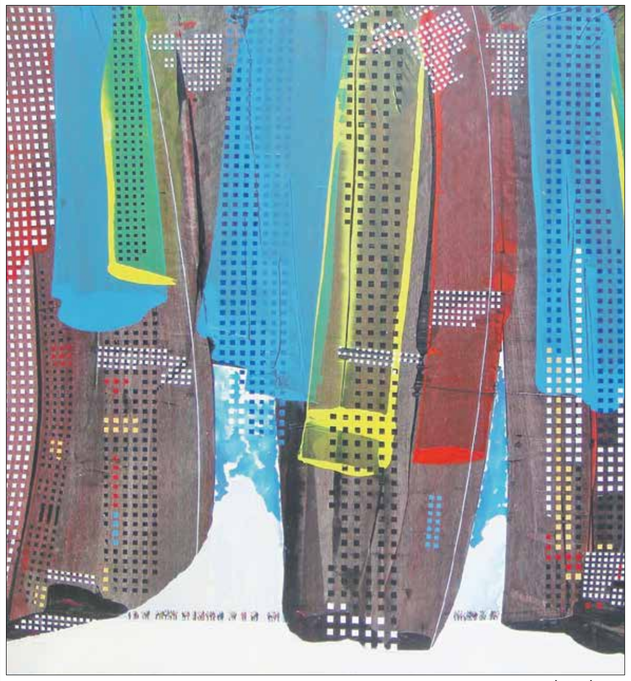

عمل لـ شوقي شمعون

نصوص

ما زلتُ مصرّة على كسر المرآة

مجرّد قصائد سريعة قبل أن نبلغ الأربعين

زينب عساف

1
المجنون أكثر الكائنات حشمةً
إنه لا يلاكم أحداً من خارج نفسه.

2
بما أن المصارعة حرّة
والضرب تحت الحزام متاح
نصيحة للنساء:
سدّدن اللكمات على ضلع آدم الناقص
هناك، حيث مصنعكن.

3
يُعلّموننا في المدارس
كيف نطلي الصمت بكل سخافات اللغة
الممكنة
يلوّثون صمتنا الأصلي
حقيقتنا الوحيدة.

4
دماغي يصنع خطوطاً في هواء الغرفة
ينسج شباكاً ثم يطويها كصيّاد خائب
يشغل نفسه في تخيّل نفسه
في ملاحقة كرات كيميائيّة وهي تعبر خلاياه
الطويلة الأرجل.
إذا كنّا الصورة في المرآة،
فأين الأصل يا ترى؟

5
مجرّد قصيدة سريعة قبل أن نبلغ الأربعين
ونبدأ في نفخ أنفسنا بالسيليكون
مستحضرات العناية بالوجه والشعر
والأظافر
مستحضرات العناية بجثثنا الفاتنة
التي تمشي كل يوم أمامنا
تسبقنا إلى أسواقٍ يبيعوننا فيها معلّقات
أو متدليات
لكن دائماً من دون فكرة
تعكّر لون أحمر الشفاه.

6
استلقى رجل عند الظهيرة
فخرجت من ضلعه امرأة ترتدي الميني
جوب
«شبّيك لبّيك» قالت، ثم قهقهت إلى الأبد
وهربت إلى اللوحات الإعلانية على
الطرقات.

7
فلتنبت الآن نافذة
وفي النافذة فتاة متكئة
وخارجها مدينة
وفي المدينة عظام تتخ داخل قبورها
ومطاعم لا تقدّم الطعام للمشرّدين
وماضٍ في أحد الجيوب الخلفية
لكن الوقت بعد ظهر يوم أحد لم يذهب فيه
مؤمن إلى الكنيسة،
فتختار الفتاة أن تقفل نافذتها وتنام.

8
تحيّتي إلى الشوارع الفارغة
إلى النادل يرطن بالإنكليزية قبل أن يطرد
الزبون الأخير
إلى أسنان ترنّ كالإجراس في النايتات
تحيّتي إلى من خرج الآن من الزقاق
حيث الوقت محتجز
لا بدّ أننا يا رفاق جميعاً
حزانى حزانى
ثمة دببة تنقرض في الصين
ومركبات أميركية تنفجر على بلوتو
ونجمة سينمائية تكسر كعب حذائها
ثمة طفل فلسطيني يلهو بقنبلة عنقودية
فيما أنكر ونكير يلعبان الشطرنج.

9
أذكر يا جدّتي
أن القوّة كانت فلسفتك الوحيدة رغم أنك لم
تقرأي نيتشه
كنت تعرفين الآر. بي. جي
وتسمّين هتلر أبو علي
جررتِ قلبك كعنزة حرون
في طرقات بيروت التي تجهلينها
لكنك لم تحسبي حساب شريانك الصغير
الذي قرّر أن يوقّف أعماله
هكذا
فجأة دون سابق إنذار.

(شاعرة لبنانية مقيمة في الولايات المتحدة)

فخر النساء زيد، احبار صينية وغواش على ورق، 1958

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

فعاليات

ضمن سلسلة **اللقاءات الكبرى**، يحتضن فضاء «دار سيباستيان» في الحمّامات بتونس العاصمة، يومَي 20 و21 تشرين الثاني/ نوفمبر الجاري، ندوةً حول الكاتب التونسي **عز الدين المدني** (1938/ الصورة)، بمشاركة عدد من الكتّاب والأكاديميّين؛ من بينهم: **محمد كوكة**، و**الشاذلي بن يونس**، و**عادل خضر**، و**الطاهر بن قيزة**.

في فضاء «ريزوم» الذي افتُتح أخيراً بالجزائر العاصمة، يتواصل حتى السادس عشر من كانون الثاني/ يناير المقبل، معرض للفنّان التشكيلي الجزائري **مهدي جليل** بعنوان **ركود**. يضمُّ المعرض، الذي انطلق في السابع من الشهر الجاري، تجهيزات ولوحاتٍ تنتمي إلى فن البوب آرت، يُضيء من خلالها على موضوعات مختلفة؛ مثل السلطة، والديكتاتورية، والعنف في جزائر التسعينيات.

عند الساعة السادسة والنصف من مساء الخميس المقبل، تُقيم مكتبة بلدية بيروت العامّة حلقةَ نقاشية حول رواية **الفقراء** لـ**فيودور دوستويفسكي** (1821 - 1881). العملُ هو أولى روايات الكاتب الروسي، وقد كتبها خلال تسعة أشهر بين 1844 و1845، وفيها يُقدّم صورةً قريبةً عن روسيا خلال القرن التاسع عشر.

حتى العشرين من الشهر الجاري، تتواصل فعاليات الدورة الثانية عشرة من **مهرجان القاهرة الدولي لموسيقى الجاز** التي انطلقت أمس الجمعة، بمشاركة عشرين فرقةً موسيقية من عشرة بلدان. تتوزّع العروض بين عدد من الفضاءات؛ مثل: «مركز التحرير الثقافي»، و«درب 1718»، و«كايرو جاز كلوب»، و«وروم آرت سبيس».